

... سُلَيْلَةٌ: ((مَا يَسِّرُهُمْ أَنْهُمْ عِنْدَنَا)) ... ③



سیرۃ الشہید - کائن حسیب - عبدالرحمن

پڑھنے والی عربی فارسی اجزا اولی

دُمُوعَةِ حُبٍ

سِرَّةِ الشَّهِيدِ - كَمَا نَحْسِبُهُ - عَبْدُ الرَّحْمَنِ

بِقَلْمِ: أَبِي عَبِيدَةِ الْجَزَائِريِّ

الإِهْدَاءُ

(تمادوا تحابوا) حديث (حسن).

الإِهْدَاءُ الْأَوَّلُ:

أهدى هذه الرسالة إلى أهل السعيد خاصة، مد الله ظلّهم، وأدرّ وَبَلَّهم وَطَلَّهم.. فليصافحوها براحة القبول، فعلّها تكون لهم بردًا وسلامًا على القلوب، وقميص يوسف في أجفان نبي الله يعقوب - عليها وعلى نبينا الصلاة والسلام - هدية يرفعها إليهم إجلال وإعظام، وتصحبها تحية وسلام...

الإِهْدَاءُ الثَّانِي:

كما أهدىها أيضًا إلى كل العباد، العاملين تحت راية التوحيد والجهاد، الساعين إلى بناء صرح الخلافة الرشيدة على منهج النبوة..
ول يكن مهرها دعوة صالحة بظهر الغيب..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يُسْرٍ وَأَعِنْ..

نبذة يسيرة؛ ومحطات سريعة:

الاسم الحقيقي لهذا الأخ المجاهد: بشّاني السعيد.

ولد رحمه الله يوم 24/07/1966 ميلادية في بلدة حمزة، دائرة العوانة، ولاية جيجل.

وأخي الحبيب السعيد له من اسمه نصيبي، فلقد كانت أيامه مشرقة بالسعادة والهناء، متألقة تألق البدر في أفق السماء..

تربي ونشأ في أسرة عريقة، فتربي تربية إسلامية سامية.. وبعد أن أكمل دراسته اشتغل معلماً في مدرسة ابتدائية ببلدته.. وكان يحظى بحب عجيب من قبل تلاميذه، كانت نفسه متطلعة لنصرة هذا الدين والذب عن حياضه، فما أن أشرقت في سماء الأمة شمس الجهاد في سبيل الله، وسطع نورها فوق الربوع، حتى كانت نفسه الأبية - رحمه الله تعالى - من النّفوس التي فاءت إلى حمى ذروة سنام الإسلام واستظللت بظلاله الوارفة، حيث التحق بالمجاهدين مبكراً، وكان ذلك سنة 1993 ميلادية، وهكذا ظل رحمه الله مجاهدا تحت راية التّوحيد الخفّاقة..، يبذل لدينه أعز ما يملك..، إلى أن جاءه القدر المحتم، فروي دمه أديم الشّرى وأفلت شمس حياته عشية يوم من أيام سنة 2000 م..

مر على جهاده سبع سنين كاملة، نسأل الله أن يتقبل منه صالح الأعمال وأن يتقبله في الشهداء، وينزله بحبوحة الجنة دار السعداء، هو ولّي ذلك ومولاه وهو على كل شيء قادر وبالإجابة جدير..

مُقَدِّمةٌ

الحمد لله القائل: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لِغْفِرَةٍ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مَا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران: 157)

والقائل: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: من الآية 74)

والقائل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَاهُمْ بِأَنَّهُمْ لِجَنَّةٍ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَأَسْتَبْشِرُ وَابْتَعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبه: 111)

والقائل: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضْلَلَ أَعْمَالُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَاهْمُ﴾ (محمد: 4-5).

والصلوة والسلام على سيد المجاهدين وإمام المتقين، وعلى آل الدين تحملوا في الغزوات مشاق البرد والحرّ، واقتحموا في نصر دينه عقبات البحر والبر، وبعد:

فَذِي رسالة نافعة ماتعة؛ ناطقة بـ: (دموعة على عبد الرحيم) وهي ترجمة تضحك عن غُرَر وزهر،

وكلمات تنطوي على كنوز ودرر، فإلى سياقها ورحابها:

تمهيد؛ ومقدمة أخرى لابد منها:

أخي القارئ الكريم لقد ظهر في الفترة الأخيرة والقصيرة من الجهاد الإسلامي العظيم، عدد ليس بالقليل من الشخصيات النموذجية الفذّة الفريدة، والتي تتمثل فيها المبادئ والقيم الإسلامية العليا بصورة واضحة ناصعة مشرقة؛ وهي صورة تبدو في ظلّها جميع الشخصيات التي نشأت في غير هذا المنهج وانحرفت عنه أقزاماً صغيرة، أو كائنات حقيرة لم تستكمل وجودها بعد.. و التي لا ينبغي أن يُلتفت إليها.. فما أغنى الشموس عن الشموع كما قيل، وفي طلعة الشمس ما يغريك عن زُحل..

ولاغرابة أخي الحبيب في أن تكون تلك الشخصيات بهذه المثابة، فهي صناعة الله سبحانه وتعالى القائل في شأن نبيه الكليم الكريم، موسى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه من الآية: 39)، أي: (ولتربي على نظري، وفي حفظي، وكلاعي) (تفسير السعدي).

ولقد صارت تراجم أولئك الرجال العظام، بالنسبة للصادقين من أبناء هذا الدين، مادة لا يغور ماؤها، ولا ينضب معينها؛ وقد سرت في أعماقهم مسرى الدم من العروق.. فلا تعجب إذارأيتهم يتناولونها مع الشروق والغروب.. فَلَنُنْحِيَ أَيْهَا الْمُجَاهِدُونَ لِنَنْحِيَ بِهَا.. فـ :

الآخر يُعلي شأنها والغرُّ يغري محقها

ولو كان الدهر يفصح لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه، لأنّيأنا بأنه ادخرها غرّة لجبينه ودرّة لتجه، وهي إن شاء الله وديعة الأسلاف للأعقاب، تخبر بال عبر، وتحذّث عنّيّ غَيْرَ؛ فاحفظ أخي القارئ ما يتلي عليك، وانظر بعين البصر والبصرة إلى ما بين يديك، وأنس به كما يأنس الطفل بشדי أمّه:

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدها إلى الآثار

و ها أنا أنقل كلمة نفيسة في هذا الموضوع للشيخ العلامّة البشير الإبراهيمي، فَخُذْها بأبلغ عبارة وأدقّ إشارة، فقد صاغها -الشيخ- في القالب الذي يلفت الأنظار، ويُجلي صدأ الأفكار..

يقول - رحمه الله تعالى - في سياق حديثه عن عظماء الإسلام: (إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أمجادنا التاريخية هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسيي فأفقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خُلُواً من المثل العليا، حتى اندسَّ هذا العرق الخبيث في آدابنا إذ التمسنا مُثلاً في الجود طوياناً تاريخ الإسلام كله كأنه صفحة مغسولة وجئنا من العصر الجاهلي بحاتم وقُل مثل ذلك في عنتر

والسّمّوّال، فإذا قصرنا الخطو وقاربنا النّجعة، وقفنا عند العصر الأول للإسلام؛ فهل خلت العصور التي بعدهم من مُثل كاملة، ومن مفاخر خالدة؟ لا. فقد تأسى عصر بعصر وجيل بجيـل فجاءت عصور زاهرة وأجيـال عـامـرة، فـلـما جـهـلـ التـارـيـخـ وـانـقـطـعـتـ العـلـائـقـ الـواـصـلـةـ بـيـنـ عـصـورـهـ ضـعـفـتـ رـوـحـ التـأـسـيـ ثـمـ تـلاـشتـ، وـصـرـنـاـ إـلـىـ هـذـاـ الفـقـرـ الشـائـنـ فـيـ المـثـلـ، وـهـذـاـ الخـوـاءـ المـزـرـيـ فـيـ التـارـيـخـ.

وقد زادتنا أضاليل الغاشـينـ إـمـعاـنـاـ فيـ الغـفـلـةـ، وـإـغـرـاقـاـ فيـ الرـكـودـ، فـقـهـاءـ هـذـهـ عـصـورـ الـجـرـدـاءـ يـعـدـونـ التـارـيـخـ عـلـمـاـ لـاـ يـنـفـعـ وـجـهـالـةـ لـاـ تـضـرـ، وـالـأـجـانـبـ يـعـيـرـونـنـاـ بـأـنـاـ أـمـةـ تـعـيـشـ فـيـ الـمـاضـيـ وـيـغـشـّـونـ سـفـهـاءـنـاـ فـيـ مـعـرـضـ التـنـصـحـ بـأـمـالـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ لـيـاـ بـأـلـسـتـهـمـ وـتـزـهـيدـاـ فـيـ هـذـاـ المـاضـيـ زـيـادـةـ عـلـىـ زـهـدـنـاـ فـيـهـ، وـهـمـ يـعـلـمـونـ أـنـاـ نـعـيـشـ بـلـاـ حـاضـرـ، وـيـوـجـسـونـ خـيـفـةـ مـنـ أـنـ يـلـمـ بـنـاـ طـيفـ مـنـ ذـلـكـ المـاضـيـ الـزـاهـرـ، فـنـبـنيـ عـلـيـهـ حـاضـرـاـ مـنـ جـنـسـهـ أـكـمـلـ مـنـهـ.

إـلـاـ أـمـمـ مـنـ إـفـكـهـمـ لـيـقـولـونـ: دـعـواـ مـاضـيـكـمـ فـهـلـ تـرـكـواـ هـمـ مـاضـيـهـمـ؟ إـنـاـ نـراـهـمـ أـحـرـصـ النـاسـ عـلـىـ الـاعـتـدـادـ بـهـ، وـالـاسـتـمـدـادـ بـهـ، وـالـامـتـدـادـ مـعـهـ إـلـىـ عـصـورـ الـخـرـافـاتـ وـالـأـسـاطـيرـ) اـهـ مـنـ: (الـآـثـارـ)، إـنـ فـيـ ذـلـكـ لـبـلـاغـاـ لـقـومـ يـتـفـكـرـونـ..

أخـيـ القـارـئـ: لـقـدـ عـمـلـ أـعـدـاءـ هـذـاـ الدـيـنـ بـاـ تـوـحـيـ إـلـيـهـمـ شـيـاطـيـنـهـمـ، وـاتـبعـواـ مـاـ تـتـلـوـهـ عـلـيـهـمـ - وـنـحـنـ نـتـرـبـصـ بـهـمـ صـنـعـ اللهـ - فـرـوـجـواـ لـأـسـمـاءـ أـنـاسـ هـمـ مـنـ سـفـلـةـ النـاسـ، تـرـجـمـةـ أـحـدـهـمـ فـيـ سـطـرـ، وـمـدـاـهـاـ مـحـصـورـاـ فـيـ شـبـرـ.. وـهـيـ هـابـطـةـ سـاقـطـةـ، بـطـوـلـةـ أـحـدـهـمـ حـسـنـ قـذـفـ جـلـدـ مـنـفـوخـ، أـوـ حـسـنـ إـمـسـاكـ (ماـيـكـرـفـونـ) لـيـنـهـقـ بـهـ كـمـاـ يـنـهـقـ (...). - وـلـيـكـنـ مـاـيـنـ قـوـسـينـ اـسـمـ الـحـمـارـ! - وـغـيرـهـاـ مـنـ الـحـرـفـ الـخـيـسـيـةـ (الـقـائـمـةـ طـوـيـلـةـ طـوـيـلـةـ)، فـصـمـمـواـ آـذـانـ شـبـابـنـاـ بـأـسـمـاءـ أـوـلـئـكـ السـاقـطـينـ وـالـسـاقـطـاتـ، وـالـعـاهـرـينـ وـالـعـاهـرـاتـ الـفـاجـرـاتـ وـ(ـوـاـصـلـ عـلـىـ نـفـسـ النـسـقـ)، حقـ " لـنـاـ أـنـ نـحـوـرـقـلـ، وـنـسـبـحـ بـحـمـدـ خـالـقـنـاـ الـعـظـيمـ فـنـقـولـ: يـاـ سـبـحـانـ اللهـ الـعـظـيمـ، فـمـاـ تـلـكـ التـمـاثـيلـ الـتـيـ هـمـ لـهـ عـاـكـفـونـ؟! وـإـنـ كـتـمـ - أـيـهاـ الـقـرـاءـ - فـيـ رـيـبـ مـاـ أـقـولـ! وـتـمـارـونـنـيـ عـلـىـ مـاـ أـرـىـ! فـسـأـلـوـاـ شـبـابـنـاـ مـاـذـاـ يـعـرـفـونـ عـنـ أـوـلـئـكـ الـرـجـالـ الـعـظـامـ مـنـ أـمـالـ: الشـيـخـ عـبـدـ اللهـ عـزـامـ، وـأـنـورـ شـعـبـانـ، وـيـحـيـ عـيـاشـ، وـأـبـيـ عـبـدـ اللهـ أـحـمدـ، وـقـارـيـ السـعـيدـ، وـأـبـيـ إـبـراهـيمـ مـصـطـفـىـ، وـخـطـابـ، وـأـبـيـ الـولـيدـ، وـأـبـيـ أـنـسـ الشـامـيـ، وـعـبـدـ اللهـ الرـشـودـ..

وغيرهم وغيرهم من أبطال هذا الدين - رحم الله الجميع -، ألا أنبؤهم عنِّي أنهم في غفلة ساهون لا هون، يفتتون في كل عام مرة أو مرتين (أو أكثر) ثم لا يعون ولا هم يذكرون.. فاللهُمَّ اهدي قومي فإنهم لا يعلمون.. فيا الله لقد ساءت الحال، وتراحت الحبال:

فيَا دُعْوَةُ الْحَقِّ سُودِيُ الدُّنْا وَيَا أَمْتِي سَدِّي وَاصْعُدِي.

و قبل أن أغادر هذه القضية، اسمحوا لي أذكر لكم هذه القصة وهي وقفة هامشية..

كنت مرّة أتجاذب أطراف الحديث مع أحد الإخوة الأصدقاء، وهو الأخ أبو عمران عبد الرحمن، وكان حديثنا يدور حول ما آل إليه حال الناس في هذا الزمان.. فقال لي ما مضمونه: كنت مرّة في قرية - وذكر اسمها ولا داعي لذكرها - مع أحد الشبان في بيته، وكانت معلقة على جدرانه صور عديدة - ولا تظنن أخي القارئ أنها صور الكعبة الشريفة، أو المسجد النبوى الشريف، أو المسجد الأقصى - لا.. ليس هذا ولا ذاك، وإنما هي - حاشاك - صور لاعين عراة، وبأوضاع مختلفة، قال لي عبد الرحمن: فجعل ذلك الشاب يُرني ويعرف لي أولئك اللاعبين، وكان من ضمنهم لاعب برازيلي اسمه (.....؟) فقال لي هذا اسمه (كذا) ويوم أن سُجِّل هدفًا في المباراة الفلانية.. ولدت زوجته طفلًا!! أو كلامًا نحو هذا الهراء والغثاء..، قال لي أبو عمران فقلت له - طبعاً وهو حيران -: أردت أن أسألك..! هل تعرف خالد بن الوليد؟ فقال لي: أين يسكن؟؟؟؟؟!! فسبحان هادي العمّي عن ضلالتهم..، ونسأَل الله لنا ولشباب المسلمين العافية..

فتأمل أخي القارئ واعتبر بما ذكرنا لك من قبل، وكم من حكاية وقصة شبيهة بهذا المثال، والمقام - في الحقيقة - لا يحتاج إلى تعليق، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن أقول من كان هذا شأنه، فليُبِّك على نفسه، ولويحُّ الرّماد على رأسه، فإنه في مهاوي الردى.. تالله إن لم يتداركهم الله برحمته، لقد ضلّوا وما كانوا مهتدين..

وإليك أخي القارئ كلاما آخر للشيخ البشير الإبراهيمي فأمتع به سمعك، يقول رحمه الله، وطيب ثراه: (ومن العجيب أن الأمم الإسلامية - وهي أغنى الأمم في باب الأسماء العظيمة - كانت وما تزال الكثرة منها تحتفي بأسماء نالت في جنون من الدهر، وعربدة من التاريخ، واضطراب في العقل حظا من الشهرة بما لا يشرف قدرها، ولا يعلو منزلة، ولا يثير ذكرها حيّة، وأفاضوا على هذه الأسماء

صيغة من التقديس، وجعلوها معاقد لإيمانهم، وأعلاماً لولداتهم، وإننا لنجد في الأسماء الرائجة بيننا ترديداً فاحشاً لهذه الأسماء المنوّمة، وقل أن نجد بيننا أسماء من الأسماء التي تعدّ تواريخ مستقلة، وبدءاً في الخلق، وتجديداً في الحياة، والتي تشير عند سماعها معاني العزة وذكريات الشرف والرّفعة) انتهت الأنوار من: (الآثار) فرحم الله الشيخ على تلك الجمل الحكيمـة، ذات الألفاظ القويـمة، والمعـاني المستقـيمة..

أبديت من فصل الخطاب بحكمة تُنبئ عن الحق المبين وتخبر
والسؤال: ماذا سوف يقول الشيخ الإبراهيمي، لو عاش أيام زماننا هذا، ورأى ما رأينا، وسمع ما
سمعنا..؟ ماذا يقول ماذا..؟؟؟
ولعله - أخي القارئ - ينفض يديه عجباً، ويتخذ في الأرض سرباً..
و قبل أن أغادر هذه المقدمة، التي دعت إليها تلك الأوضاع المظلمة، أعتذر على الاستطراد، فقد
كانت الحاجة إلى ملحة كما رأيت.. فاليوم:

Three small black asterisks arranged horizontally in the bottom right corner of the page.

فقلت في نفسي: ولقد علّمنا القرآن الكريم أنّ من المؤمنين رجالاً، ومن الرجال أبطالاً، ومن الأبطال
جbalala، إلى آخر ما يجري على هذا النّسق ..، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ
عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَرُّ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: 23).

أخي القارئ: إنّ صدّى هذه الآية العظيمة يدفع الهمّ والغمّ؛ بل والكسل عنّا، ويؤرّق ماضِجَع الصادقين مثناً، وقد جاءت في جمال مبينٍ وحسن معنى؛ أو لليست من عند الله؟؟؟

ولذا هتفنا مراراً وقلنا:

قد اختارنا الله في دعوته و إنما سنمضي على سُنْتَه

فمنا الذين قضوا نحبهم ومنا الحفيظ على ذمته

فكليما يقرأ الإنسان تلك الآيات البينات الكرييمات، إلاً وتذكر أحبابه وإخوانه، الذين قضوا نحبهم على درب هذا الجهاد الميمون، والله أسأل أن يكونوا على أحسن ما يكون (في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر)، إخوة إذا تذكّرهم المرء خنقه الغَمّ، وحُمِي فؤاده الْهَمّ، ويصبح في نهار أحَلَك من ليل، ويمسي في ليل أشقّ على النّفس من وَيْل (بيت كما بات السَّلِيم مُسَهَّدا) أو: كالذى اكتحل السُّهَاد، وافترش القتاد، حاله كحال من قال:

وليل كموح البحر أرخي سدوله عليّ بأنواع المهموم ليتلي.

وما أحوجنا أن نتمثل في هذا بأبيات الشاعر، التي تستوقف المشاعر:

كيف التصبر من ناري نوى وجوى وفي الحشا أنكاء جرح غير مندل

فقد فقدت الألى كانت بهجتهم نور النّواطر في الأحداق والمقل

لم أكتحل بقرار بعدما ارتحلوا ولا ابتغيت لهم في الناس من بدل

لم يُيقِّ لي الدّهر بعد البين من جلٍ ما أستطيع به توديع مرتحل

ولكنني أعلم - بحمد الله - أمّها شدّة وتحول، وسحابة لا تلبث أن تزول:

ألا أيّها الليل الطّويل ألا انجي أصبح وما الإصلاح منك بأمثل

فصبرا على كيد الزّمان وكدّه، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده:

إنّ الظّلام إذا تزايد وقعه والكلّ ملّ من السّواد الفاتر

هبت جيوش الصبح من أوّكارها ليسطّر الإشراق بعض خواتري

ولعله؛ نصر وسعادة، أو قتل وشهادة، (قل عسى أن يكون قريبا)، فلا بدّ إذا من التّصبر، والتدبر

والتبصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْرِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل

عمران: 200)

يا قلب صبرا فإنه سَفَهٌ بالحرّ أن يستفزّه الفزعُ

أعاننا الله على صعوبة الطريق وقلة الرّقيق، وأهمنا صبرا يهون علينا احتمال المغامر، ويقرب علينا

مسافة المكارم، وبالصبر تناول العلا، وعند الصباح يحمد القوم السرى..

وإنّ من بين أولئك الرجال الذين نَوَّهُنا بذكرهم فيما مضى من الإجمال، أخ لنا كريم، كان لنا من خير الأعوان، ونِعْمَ حامل المعروف والإحسان، وأحسبه من أولئك الرجال الذين قضوا نحبهم على درب هذا الجهاد المبارك، وبذل في سبيله نفسه ونفي فلامتحق بحقّ أَفَ أكتب عنه هذه الترجمة العطرة، وهذه الشهادة الطيبة النّيرة، علّنا نفيه بعض حقّه، تكون لنا عذرًا إن كنّا قصّرنا في ذلك أثناء حياته، أو بعبارة مغايرة: هي دموع المقسى بعد العتب، والتائب بعد الذنب.. فشفيع المذنب إقراره، ورفض خططيته عند مولاه استغفاره ..

* * *

لا تكتموا الشهادة:

استناداً لقول الحبيب الهايدي رض: ((أنتم شهداء الله في الأرض)) [السلسلة الصحيحة: 3 / 295]، ووفاء لحق إخواننا وأحبابنا وأصدقائنا وفاق هذا الْدُّرُبُ النّيرُ، وخدمة لهذا الدين ولو بـكُفَّ رمل، أو نزع دلو، قمت بتدوين هذه الشهادة الطيبة، والتي تمثل في ذكر بعض المآثر والمفاخر، التي كان يتحلى بها الأخ السعيد رحمه الله تعالى، وهذا أكتبها وأرسلها لتطوف على النفوس الأبية والزاكية، هذا وقد كسوتها حُللاً من العبارات الزاهية، حتى تدنو من القلوب الرقيقة الصافية .. وهي كلمات - بحمد الله - ليس فيها لاغية، علّها تكون أنيساً ومتعة لرفاق الْدُّرُبِ وطلّاب الجنان العالية، كلمات وفاء، وصفاء، ونقاء، تمثل في ترجمة عطرة باسمة الكمام، فاتحة النسائم، كيف لا؛ وهي تحكي - كما ذكرت من قبل - مناقب الأخ السعيد الكريم، الذي كان كالغضن الرّطب يميل به كلّ نسيم، صاحب المناقب التي شرق في جبينها غرة الصّباح، وتنهادي أخبارها وفود الرياح، وعند تحريكها هي نسيم الوردة؛ بل المسك الفيّاح، تهبّ على الروح كما يهُبّ نسيم السّحر على صفحات الزهر.. وبعد حين؛ سوف أُعَطِّر الشّام ببعض مآثره ..

نعم؛ له محسن سارت أخبارها، ولاحت آثارها، وما المرء إلا ذكره وما ذرها، لقد حفظ له التاريخ في أنصع صفحاته ذكرًا حسناً، ومجداً وسؤداً، فله الذكر الذي ينبغي أن يُذكر، والأخبار التي تحفظ وتنشر، وهو أنا أدونه في الطروس، لئلا يمحيه النسيان من النفوس ..

وهذا الأخ الحبيب كانت بيني وبينه صداقه باذخة الذرئ، وأخوة وثيقة العرى، وكان الواحد منا يعتمد على أخيه في البعد والقرب، اعتماد الملاح على نجمة القطب، فيما لله كم من شهور وأعوام قضيناها، وليل من الدهر اختلسناها، كان السرور فيها ضاربا خياما، والأنس ناشرا أعلامه، وكم من مساع سعيناها وحوائج مع بعضنا البعض قضيناها.. كل ذلك كان على ربا جبل (بوحنش) وتلال حمزة وبالجملة: بضواحي (جيجل) وماجاورها..

أولئك أحبابي فجئني بهم يا (أخي) إذا جمعتنا المجامُ

لقد انقطع بيني وبين أخي السعيد في هذه الدنيا باب التلاق، وطال أمد الفراق، والمرء يحن إلى أخيه حنين النجيب إلى عطنه، وحنين الغريب إلى أهله ووطنه، وهذه الكلمات شاهدة على ذلك، وبالأين يُعرف ألم الجرح..

والآن - أيها الأحبة - نقلب بإجلال وإكبار، بعض صفحات حياة أخي السعيد - رحمه الله تعالى - فإلى سجل المفاخر، نتصفح فيه بعض ما تخلّى به رحمه الله، وهو أنا أعرّفكم به، لأنني أعرّفكم به، وأسائل الله أن يبارك في هذه الخطوة السديدة، وأن يجعل القبول لهذه الكلمات السعيدة..

* * *

محاولة ذهابه إلى أفغانستان:

كانت الغيرة على الدين ومحارمه، والتآثر بقضايا المسلمين عامة، السمة البارزة في شخصية الأخ السعيد، ولهذا لما اشتعلت نار الحرب والضرب في أفغانستان، وشبّ ضرّامها بين المجاهدين والشيوعيين أتباع الشياطين، حاول السعيد كما حدّثني ابن عمّه أبو دجانة حفظه الله، أن يذهب إلى أفغانستان ليشارك إخوانه المجاهدين هناك في تلك الحرب الضروس، ويلبّي داعي الجهاد في سبيل الله الذي تعين على المسلمين في ذلك الوقت، كما أفتى بذلك الكثير من العلماء، وعلى رأسهم الشيخ عبد الله عزّام رحمه الله، ولكن ظروف قاسية حالت بينه وبين ذهابه هناك، وعلى رأسها عدم وجود النّفقة، التي كانت باهضة في ذلك الوقت، فبقى السعيد حزيناً كسيراً متحسراً على عدم إدراكه تلك الأمانة الغالية، التي يسعى إليها كل من تتطلع نفسه إلى نصرة دين الله وإدراك ما أعدّه الله للمجاهدين والشهداء في الجنان العالية، ولكن المهم؛ هو أنّ ليس عليه في ذلك حرج، فقد عذر ربه

سبحانه بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: 91] فما على المحسنين - أخي السعيد - من سبيل ... وأسائل الله أن يأجرك على نيتك بمنه وفضله ..

* * *

نفيره وتركه مهنة التدريس:

إذا كانت فرصة الذهاب للجهاد في أفغانستان قد فاتت أخي السعيد، فما كان لها أن تفوته على أرض بلاده التي ترعرع بين أحضانها، فما أن دوّت صيحة النّفير (يا خيل الله أركبي، حي على الجهاد) إلا وكان السعيد من زمرة السّابقين الأوّلين، متمثلاً بقول من قال:

بادر الفرصة واحذر فوتها فبلغ العزّ في نيل الفرص
وابتدر مسعاك واعلم أنّ من بادر الصيد مع الفجر قنص

فكان من أولئك الرجال الذين حازوا قصب السبق في الذّبّ عن حياض هذا الدين..، وهذا الدين بكلّ صراحة ووضوح، لا يقف على ثغوره الوعرة إلّا الصادقون من أبنائه، وإنّ من أخطر ثغوره وأجلّها ثغور الجهاد في سبيل الله تعالى، فليس طريق الجهاد مطية ذلولاً يندفع لركوبها العاجز والحازم - ولو كان فضله عظيماً - وهو لا يخفى على كُلّ قارئ لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولكن :

كم من رياض لا ينبع لها تُرِكْتُ لآنَ طريقةها وَعُرْ

التحق الأخ السعيد بإخوانه المجاهدين، وذلك سنة 1993 ميلادية، وترك خلفه منصبه غير آسف ولا نادم عليه، فالعقيدة عنده أحلٌ، وأعلى، وأغلى، ولسان حاله:

خذوا كُلَّ دنياكم واتركوا فؤادي حرّاً طليقاً غريباً
فإنِّي أعظمكم ثروة وإن خلّيتُموني وحيداً سليباً

وكم وقفت المناصب وغيرها من المغريات، عقبة كأداء في طريق الناس، فتخلّفوا عن ركب الجهاد في سبيل الله، ولكن أتى لعبد قذف الله في قلبه نور الإيمان فخالطته بشاشته، أن يتخلّف عن ركب الإيمان، واللّحاق بقافلة المجاهدين ولو أن يكون في ساقتهم.. والمعدور من أولئك - المؤمنين - سبل الخير أمامه كثيرة، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَا نُفْسِكُمْ﴾

وَمَنْ يُوقَ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ [التغابن: 16]

يقول الشّيخ المجاهد عبد الله عزام رحمه الله - وتأمل أخي في الله - (ويستحيل على عبد تستقرّ في مسارب نفسه عقيدة التّوحيد ويبقى ساكناً جاماً ميّتاً لا حراك فيه لابدّ أن تتحول هذه العقيدة إلى حرارة تجيش بها الصدور، وتفيض أفعالاً في عالم الظهور وتنتج سلوكاً وأخلاقاً وأنظمة مثل ماء السماء الظهور) انتهى من كتاب: (في خضم المعركة).

وهذا الكلام عزيز لا يفهمه إلا آربابه، ولا يدرك كنهه إلا أصحابه، ولهذا، قام الأخ السعيد على أمشاط رجليه، متوكلاً على ربّه، عازماً على مواصلة الطريق، إلى أن يظفر بإحدى الحسينين، تاركاً خلفه المغريات والماديات منتشرة على جنبات الطريق، قائلاً لها إلينك عنّي إلينك عنّي .. حاله:

﴿وَعِلْتُ إِلَيْكَ رَبَّ لِزَاضَى﴾ [طه: من الآية 84]

إذا نام غرّ في دجى الخطبِ فاسهرِ
وَقُمْ لِلمعالي وَالعوالي وَشَمَرِ
وَخَلَّ أحاديث الأمانِي فِيَهَا
عاللة نفس العاجز المتحيرِ

متتملاً بقول من قال: (إن الصادق إذا همّ؛ ألقى بين عينيه عزمه) نسأل الله همة تسمو بنا إلى الكمال،
وتوفيقاً للصالح الأعمالي فإن سالكي طريق الحق أفراد..

* * *

أخلاقه وأثره:

هذه المحطة - الأخلاق - أيها الأخ الكريم هي عقد في جيد رسالتنا هذه فاسمع أخي رعاك الله:
لقد أقام ديننا العظيم - الإسلام - صرح الحياة الاجتماعية، على قواعد وأسس متينة من الآداب
العالية، والفضائل السامية والقيم الرّاقية، وما المرء من غير آدابه وأخلاقه؟! ومن أوقى الأخلاق
الكريمة فقد أوقى خيراً كثيراً:

فإذا رُزِقتْ خليقة محمودة
فقد اصطفاك مقسم الأرزاقِ
فالناس هذا حظه مال، وذا
علم وذاك مكارم الأخلاقِ

ولكن الله سبحانه وتعالى خصّ بها - الأخلاق - الكرماء الذين جعلهم أهلها، فخفف عليهم حملها،
وسوّغهم فضلها وبرّها، وهيأ لهم أسبابها، فوقفوا عليها جادين حازمين، وواصلوا السّير إليها

بالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ، فَتَحَلَّوْا بِهَا وَحَمَدوْا عِنْدَ الْوَصْوَلِ مُسْرَاهِمْ، وَإِنَّمَا يَحْمِدُ الْقَوْمَ السَّرَّى عِنْدَ الصَّبَاحِ..

وَمَا اللَّيلُ إِلَّا لِلْمَجْدِ مَطِيهُ وَمِيدَانُ سَبْقٍ فَاسْتِبْقَ تَبْلُغُ الْمُنْتَهَى

وَفِي الْحَرْكَةِ بِرَكَةٍ؛ كَمَا قِيلَ ..

وَالْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ أَخْيُ الْقَارِئِ، لَا يَتَحَلَّ بِهَا إِلَّا مِنْ شَمَّرٍ وَبَادِرٍ، وَكَانَ التَّوْفِيقُ مَطِيَّهُ، وَالْابْتِهَالُ
إِلَى اللَّهِ طَوِيَّهُ، وَهُمْ أُولَوْا الْبَصَائِرُ وَالْأَنْفُسُ الطَّيِّبَاتُ، وَالْهَمْمُ الْمَهَذِّبَةُ الْعَالِيَاتُ، جَعَلُنَا اللَّهُ
وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ بِمِنْهُ وَفَضْلِهِ ..

أَمَّا أَخْيُ الْحَبِيبِ السَّعِيدِ رَحْمَهُ اللَّهُ، وَالَّذِي أَنَا بِصَدِّ الْحَدِيثِ عَنْهُ فَقَدْ طَلَعَتْ شَمْسُ الْآدَابِ مِنْ أَفْقِ
أَخْلَاقِهِ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُهَا مِنْ خَلَالِ آثَارِهِ، لَقَدْ كَانَ رَحْمَهُ اللَّهُ يَتَهَزِّ كُلَّ فَرْصَةً لِيُثِبِّتَ بِهَا دَعَائِمَ
الْأَخْلَاقِ السَّامِيَّةِ، وَهِيَ سَجْيَّةُ ظَاهِرَةِ فِيهِ، فَلَوْ اسْتَنْطَقَتْ لِسَانُ حَالِهِ لَقَالَ:

إِنِّي لِتَطْرِبِنِي الْخَلَالُ كَرِيمَةٌ طَرَبَ الْغَرِيبُ بِأَوْبَةٍ وَتَلَاقِ

وَيَهْزِّنِي ذَكْرُ الْمَرْوِعَةِ وَالنَّدَى بَيْنَ الشَّهَائِلِ هَزَّةَ الْمُشَتَّاقِ

فَأَخِي السَّعِيدِ مِنْ شَرْفِ الْعَنْصَرِ الْكَرِيمِ، وَمَعْدَنِ الْشَّرْفِ الصَّمِيمِ، أَصْلُ رَاسِخٍ .. وَفَرْعُ شَامِخٍ ..
هَمْتَهُ تَنَاطِحُ الْجَوْزَاءِ، فَلَا تَسْمُوا إِلَّا لِلْمَعَالِيِّ، لِهِ أَخْلَاقٌ تَسْتَنْطِقُ الْأَفْوَاهَ بِالاعْتِرَافِ!، عَرَفَهُ الْجَهَادُ
بِفَضْلِهِ .. وَتَشَهَّدُ الْأَرْضُ بِاجْتِهَادِهِ وَسُعْيِهِ .. وَلَوْلَا كَثْرَةُ اسْتِعْمَالِ الْمَثَلِ: (عَجَزَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلْدُنَ
مَثْلَهِ) وَالَّذِي صَارَ مُبْتَدِلاً، وَيُقَالُ فِي أَنَّاسٍ يَجُودُ الزَّمَانُ بِالْمِئَاتِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ، لَقْلَتْهُ فِي حَقِّهِ – أَحْسَبَهُ
كَذَلِكَ وَاللَّهُ حَسِيبَهُ – فَاسْمَعُ أَخِي الْقَارِئِ وَرَأَى زَنْدَكَ، وَعَلَّتْ يَدُكَ، أَتَلَوْ عَلَيْكَ بَعْضُ أَخْلَاقِهِ
وَآثَارِهِ، وَخَذْ مَا يَأْتِيكَ عَمِّنْ عَاشَ بِقَرْبِهِ، وَقَدْرُهُ أَحْسَنُ التَّقْدِيرِ (وَلَا يَنْبَئُكَ مِثْلُ خَبِيرِ)، وَقَدْ مَضَتْ:
(وَهَا أَنَا أُعْرِّفُكُمْ بِهِ، لَأَنَّنِي أَعْرِّفُكُمْ بِهِ)، وَسُوفَ أَشْرِحُهَا لَكَ بِلِسَانِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، فَخَذُهَا بِالْيَمِينِ

بِلَا مِيَنِ:

أَخِي الْقَارِئِ: إِنَّ أَخِي السَّعِيدِ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَ مِنَ الْعَزِّ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مِنَاهِلٍ؛ فَلَوْ كَانَ وَرَاءَ
الْبَحْرِ – فِي ذَلِكَ – مَطْلُوبٌ لِخَاصِ الْبَحْرِ إِلَيْهِ، أَوْ كَانَ فِي أَعْمَاقِهِ مَأْرُبٌ لِغَاصِ فِي لَجْجَهِ عَلَيْهِ؛ حَالُهُ:
الْمَجْدُ تَطْلُبُهُ نَفْسِي فَتَبْلُغُهُ وَلَسْتُ أَرْضِي سَوْيَ التَّحْلِيقِ فِي الْقَمَمِ

والآن مع بعض الوقفات:

نصحه لإخوانه:

كان السعيد طيلة أيام جهاده ناصحاً أميناً رؤوفاً رحيماء بأخوته، خاصة في تلك الفترات التي يكون فيها أميراً عليهم، فكان لهم فيها كالمصباح المضيء، يمدّهم بصفوة تجاربه، وزبدة معارفه، يعرّفهم موقع الصواب، ويبصرّهم بموقع الارتياط، وما يورّثهم حلول النّقمة والعذاب، ويصلّعهم شرف التدبر، ويشرف بهم على حسن المصير، أو ليس هو أميرهم وأخوه الكبير؟؟ بلـ؛ بلـ..

وكان - رحمه الله تعالى - في كل ذلك يتمتّز بصدق اللهجة، وتحديد الفكر، وصرامة النّظرة ووضوح المهدف، وجلالة الطرح والشرح .. إلى غير ذلك من الخلال النبيلة، والصفات الجميلة، متمثلاً بين عينيه حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((الذين النّصيحة))، ولسان حاله: (والإرشاد عنوان العقيدة الصحيحة)، والنّصيحة لعباد الله المسلمين، من الخلق الحسن الذي هو دليل على صفاء النفس ونقاؤتها، وسلامتها من الحقد والغش - إِي وَاللَّهُ - وصاحب هذا الخلق الكريم يلتمس إحسان الله عليه بإحسانه للناس، فالجزاء من جنس العمل و ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا إِحْسَانٌ﴾ .. ولكن يا حسرة وغفلة هذا الإنسان..

خدمته لإخوانه:

كان السعيد - رحمه الله تعالى - يخدم إخوانه في الحال التّرّ حال، فلا تراه إلاً جاداً في ذلك، وهذا دينه طول جهاده، فضرب في كل الأعمال بسهم وافر، ومن نماذجه المشرّفة في ذلك، أنه كان يتّظر إخوانه بعدما يفرغوا من تناول الطعام، ثم يسارع هو لغسل الأواني، وتنظيف المطبخ، مضى على هذا الخلق إلى أن فارق الحياة فجزاه الله عن إخوانه خير الجزاء ..

وكان - رحمه الله تعالى - إذا نام إخوانه يقوم على ساعد الجامستـ ا بظلّام اللـيل!، فيغسل ما يجده أمامه من ثياب الإخوة، فلم تهـنـ نفسـه إلاـ بـذاـكـ، ثم يقوـمـ الإـخـوـةـ فيـ الصـبـاحـ، فيـجـدـواـ ثـيـاـبـهـمـ مـغـسـولةـ نـظـيـفـةـ، لاـ يـدـرـونـ مـنـ فعلـ ذـلـكـ، وـلـكـ كـشـفـ بـعـدـ ذـلـكـ وـعـرـفـ وـعـرـفـ.. وـاسـتـمـرـ المـوقـفـ عـلـىـ تـلـكـ الحالـ طـيـلـةـ أـيـامـ وـلـيـالـ.. فـرـحـمـكـ اللهـ أـخـيـ السـعـيدـ..

وصدق الشاعر :

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على راحلـ

حياؤه وحلمه:

تحلى السعيد بها وصف به النبي ﷺ الأشج بن قيس : ((إن فيك لخلقين يحبّهما الله: الحلم والأناة)), فلقد كان - رحمه الله تعالى - حليماً رحيمًا مع إخوانه، طيب الكلام؛ حتى في أشد حالات الخصم، لا يعرف السباب والشتم إلى شفتيه سبلاً، متمثلاً قول ربّه جل في علاه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا﴾ [البقرة من الآية: 83]، قوله سبحانه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا إِنَّمَا هُوَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].

أما حياؤه؛ فإنك لا تتردد من أول لحظة ترى فيها السعيد في الحكم عليه بأنه صاحب حباء جم، ترى ذلك جلياً في حركاته وسكناته، وملامح وجهه الذي تلوح عليه نصرة النعيم، وكيف لا يتحلى بذلك، ونبيه ﷺ يقول كما في صحيح الإمام مسلم: ((الحياة خير كلّه)) ويقول أيضاً كما في صحيح الترغيب والترهيب: ((الحياة والإيمان قرناً جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)), نسأل الله من فضله..

قال الشاعر:

إنني لأرى من لا حباء له ولا أمانة وسط القوم عريانا!

وبالجملة، فقد كان له من الحلم والوقار، والسكينة والرقة، والصبر والوفاء، وسهولة الجانب، وعدم تذلل غير الله؛ ما الله به عليم..

حبه لنشر العلم:

كان رحمه الله حريصاً على نشر العلم وتعلم أحكام هذا الدين، ومن حبه لنشر العلم، أن طلب مرّة من بعض إخوانه من كانت لهم رغبة في طلب العلم، بأن يقوم بترتيب حلقات وعظ وتذكرة للمجاهدين، ويقوم هو بإعفائه من كل المهمات والأشغال، حيث ترکّز مهمته إلا على التوجيه والتذكرة والوعظ فقط، والحرص على استقامة الجميع على منهج الله تعالى، فكان رحمه الله حريصاً على تعلم أحكام هذا الدين، وضربنا مثلاً واحداً فقط، لننبئ به على غيره، ويدلّ على ما وراءه..

همته:

كان رحمه الله عالي الهمة، لا يكلّ ولا يملّ من السعي، فهو صاحب العمل الدؤوب، تراه مثل النملة: (لا تبالي مادامت دائبة، أن ترجع مرّة منجحة ومرّة خائبة)، كما يقول الإبراهيمي عليه رحمة الله تعالى، رافعاً شعار:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه
وبالهمة العلية ترقى إلى الْعُلَى
ولم يتأخر من أراد تقدّما
فكان عزمه رحمة الله سيف قاطع، وأمله نور لامع، ماثلاً أمّا عينيه قول شيخ الإسلام
الله تعالى: (فلو عَلَتْ بِكَ هَمَّتِكَ رُبَا الْمَعْلَى، لَا حَتَّ لَكَ أَنوارُ الْعَزَائِمِ) من كتاب: (الفو
السّعيد - رحمه الله تعالى - من تلك الأرض المستوية، متطلّعاً إلى القمة السّاقمة، فقا
الكبيري، التي دفعته إليها غيرته على هذا الدين، وحبّه الانتصار للمظلومين، والانتقام
فقطت بفضل سعيه؛ جبال ولاية جيجل، ومرّات وتلال بلدته (حمزة)، وجبله الذي
إليه: (بوحنش)، وغير ذلك من الرّبّا والهضاب، والسهول والوهاد، والأماكن التي
عليها أثناء حياته الجهادية، فكان رحمة الله، كالغيث أينما وقع نفع، وأينما زرع حصد..

زهاده

كان يُضرب به المثل في الزهد والتقوش، فلا أعلم أن السعيد امتلك خلال حياته الجهادية أكثر من لباس قطّ!!، فكان لا يملك إلا اللباس الذي يرتديه، والتي كانت في أغلب الأحيان بالية، لم تكن الفاقة هي التي اضطرّته لذلك، وإنما زهذه وإيشاره، فكان كلّما امتلك ثياب جديدة، إلاّ وأهداها إلى أحد إخوانه، ممّن هم بحاجة إليه، قلت له مرّة هلّاً اخترت لنفسك (بدلة) أخرى تستعملها عند الحاجة؟! فأجابني بكلمة خلصت في حديثه: ولأـ؟

وفي الوقت نفسه، كان قنوعا لا يسأل الناس متأسيا بمن قال الله فيهم : ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا حَافَأً﴾ (البقرة من الآية: 273).

قال الشاعر :

ومن لزم القناعة نال عزّا
وهل بالذلّ مُتّقبةٌ تُنال؟

حالة:

الدّهر أَدْبَنِي وَالصَّبَر رَبِّانِي والقوت أقنعني واليأس أغناه

لقد ركل الدنيا برجليه، فاستوى عنده ذهبها وحَجَرُها، وكان منها؛ كما قال الإمام الحسن البصري
رحمه الله تعالى: (وَاللهِ مَا أَبَلَ شَرَقَتْ أَمْ غَرَبَتْ) ..

سخاوه:

وهو في ذلك حطّ الرّحال، وكعبة الآمال، وكأنّ الشّاعر يعنيه يوم قال:

لاموه في بذل الأموال قلت لهم هل تقدر السُّحب ألاًّ ترسل المطر؟

فلا تعجب إذا من أنه ارتفع وساد، قال حَبْر القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: ((سادة الناس في الدنيا الأسيخاء، وفي الآخرة الأتقياء)) و(كل عيب يغطيه السخاء) كما قيل..

* * *

لا يخزيك الله أبداً:

هذه بعض أخلاق عبد الرحيم - رحمه الله تعالى - والتي تشفي بنسيمها العليل، وتنفي ببرد زلاها حرّ الغليل، وهو في ذلك بطلها بلا منازع، وفارس الحلبة بلا مدافع - كما أحسبه - ومن أراد أن يسابقه في ذلك الميدان فلا يدرك منه إلا الغبار، ولا يسمع عنه إلا الأخبار فحقٌّ له أن يجرب بأخلاقه ذيول العزّ والافتخار، فله - رحمه الله تعالى - في الأخلاق شرف باذخ، تُعْقَد بالنجوم ذوائبه - أحسبه كذلك والله حسيبيه - والحديث عن سيرته كثير الحواشي، والغرض الإشارة إلى بعضها وقد حصل، وإن لم يكن وابل فطلّ، ويكتفي من القلادة ما يحيط بالعنق، وما أنا مع أخلاقه؛ إلا: (كالعطشان كُشِف له عن ماء عذب، ومُنْعِي منه بمانع صعب):

إذا حارت الألباب كيف تقولُ في ذا المقام فعذرها مقبولٌ

وبالجملة؛ لقد كان له شأن كبير - كما أحسبه - فكانت أيام جهاده سعيدة جميلة، وحصلاته وأخلاقه فيها مع إخوانه كريمة نبيلة، وإذا تأمّلت أخي القارئ ما ذكرت، وسررت فيها شرحت، جرّت على لسانك مقوله أئننا الحبيبة خديجة رضي الله عنها لنبينا ﷺ: ((كلا والله لا يخزيك الله أبداً)) [رواه البخاري]، وهذه الإشارة تدلّ على ما وراءها، فلا تغفل عما قصدنا، وشهاد لأخي السعيد بما إليه أشرنا..

أخي القارئ: على هذا التّحول من التربية العالية، والأخلاق الإسلامية السّامية، مضى عمر السعيد (عبد الرحيم)، وهذا انطبقت فيه تلك القيم الفاضلة، من أمانة وشهامة ورجولة، وعزّ وإباء وكرامة، وتواضع ولين جانب.. وكأنّ الشّاعر عنده يوم قال:

على بابك العالي من الفضل راية على رأس أرباب المعارف تخفقُ
أرى غصن من يدعوك إلى الفضل نفسه من الفضل عرياناً وغصناً مورقاً
فحقٌ لنا أخي السعيد، أن نفاخر بخلقك الباهي، ونباهي بوجهك المشرق، وأنني مخفي حسن خلقك
على مشاهد، أو يفتقر فضلك وإحسانك إلى شاهد..

كنت مرّة مع أحد الإخوة، وتعرّضنا أثناء حديثنا إلى الأخ السعيد فقال لي ذلك الأخ - يعني السعيد -
عندما تراه تحبّه..، هكذا سلب السعيد القلوب، ودخل إليها حبه بلا استئذان..

لقد كانت مرتبته بين إخوانه رفيعة مثل الكواكب، وقد قيل: (إن تفاوت المراتب، بحسب تفاوت
المناقب)، فلا يسابقه في ذلك أحد، فكأنهم النجوم وهو الفرق..
وهكذا انقضت أيامه الزاهرة، مختلفاً وراءه ذكريات فاخرة، وقلوباً بالحبّ له عامرة، وألسنة له تدعوه
وبالخير له ذكرة..

تبقى صنائعهم في الأرض بعدهمٍ والغيث إن سار أبقى بعده الزهراء
فللسعيد - رحمه الله تعالى - نُنشد:

فمن يَكُنْ راقياً شرف المعالي كمثلك في الورى لاشك يَحْمِدُ
وهاك من المحب (كلام نثر) (يشير إلى وفائي بل (ويشهد)
أوفي بوعدي صديقي لست أخلفه ولست أنقض عهدا خطّ بالقلمِ

* * *

نهاية المطاف:

ما من إنسان مهما امتد عمره، وطال أجله ولو عمر ألف سنة، إلا الموت نازل به، قال تعالى: ﴿كُلُّ
مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمُوْتِ﴾ (آل عمران من الآية: 185)، ولكن
شّتّان شتّان، بين من مات على الفراش، ومن مات في ميادين الجهاد والاستشهاد، فالفرق واسع،
والبون شاسع، واسمع أخي القارئ صرخة ابن الوليد رض عندما حضرته الوفاة، حيث قال: ((ها أنا
ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجناء))..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل

عمران: 169)، فبشرى وطوبى لمن استعد للموت قبل هجومته، وتزود من دنياه لآخرته، وإن من خير الزاد ليوم المعاد، عبادة الجهاد في سبيل الله تعالى، فهو التجارة المنجية، قال تعالى وبقوله يهتدي المهدون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْحِي كُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحْبِبُونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف: 10 - 13)

أما فارسنا الذي سبق الحديث عنه، فقد رحل ولسان حاله:

كفاني أن أموت مجاهداً وحبّ إلهي قائدِي منذ نشأتي

نعم رحل السعيد؛ فصار إخوانه من بعد فقده كعِقِدٍ فُقدَتْ واسِطَةُ حَقٍّ^٣ لِكُلِّ مجاهدٍ أَن يذرف دموعَ الحزنِ عليهِ ..

سارت سفائنهم والنوح يتبعها كأنها إبل يحدو بها الحادي

فهبيّ رياح الموت نكبة وأطفئي سراج حياني قبل أن يتحطّم

فِيَا قَلْبٍ لَا تَجْزُعْ إِذَا عَضْكَ الْأَسْوَى فَإِنَّكَ بَعْدَ الْيَوْمِ لَنْ تَأْمَلْ

و يا عين قد آن الجمود لمدمعي فلا سيل دمع تسكين ولا دما

و يا قدمي ما سرت بي ملذة ولم ترّق إلا إلى العز سلما

فلا تبطئي سيرا إلى الموت واعلمي بأنّ كريم القوم من مات مُكرّما!

* * *

سيقول المنافقون:

قتل السعيد (عبد الرحيم) مجاهدا في سبيل الله، ولكن أهل الشقاق والنفاق كعادتهم يرددون: ... ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة.. أضاعوا حياتهم..! قضوا على زهرة شبابهم بأيديهم..! أمر نقل بأن هذا مصيرهم، وهذه هي نهايتهم..! أو بتعبير أدق: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ إلى آخر التّهات والخزعيلات، والضلالات والجهالات..

ونحن نجيب دوماً وأبداً بقول الله تعالى، وندفعه في نحوهم : ﴿قُلْ فَادْرُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمُوتَ إِنْ كُتُمْ صَادِقِينَ﴾ ..

إذا ما الدّهر جرّ على أناسٍ مصائب أُنَاخٍ باخرينا
فقيل للشّامتين بنا أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا
ومن لم يعجبه ذاك الخطاب، وغلق في وجوهنا الباب؛ فإليه:
وما على العبر الفواح منْ حرجٍ أَنْ مات من شمّه الزّبَال والجَعْلُ

花 花 花

الخاتمة..

لقد جالت مع هذه الكلمات الخواطر.. وتهطلت على سحائب الذكريات المجيدة التليدة.. وتلك الأيام الغراء التي قضيتها مع أخي الصديق الحبيب السعيد (عبد الرحيم).. وقد اختلط وأنا أسطر هذه الجمل؛ الحنين بالأذين..

وكم تحدّثني نفسي على الإسراع في الخطوط لبلوغ تلك القمة السامية التي بلغها السعيد، فلا أملك إلا أن أقول لها: هاه .. بأي شيء؟ فاللهُمْ وفق، وأختتم لنا بالباقيات الصالحتات..

أخي القارئ الكريم:

إن الحديث عن هؤلاء الرجال يحلو ويطيب، وهو طيب كنفح الطيب.. ولكن الهمم قاصرة، والرغبات فاترة، ونار الجد والحزم هامدة خامدة، ولو كان في نطاق الإمكان، زيادة البيان في هذا الشأن لأسهبت وأطنبت ..

ولكن هذا جهد المقل، فالامر كما قيل: العين بصريرة، واليد قصيرة.. ورحم الله من نشر فضل المجاهدين ولو بشرط كلمة..

أما أنت أخي السعيد، فقد أبليت ومضيت.. ثم فارقتنا فأرّقتنا.. وتركتنا فأبكيتنا..

أراك هجرتني هجرا جميلا وما عودتني من قبل ذاكا

دهاك من المنية ما دهاكا وما فارقتنى طوعا ولكن

ختمت ودادك في ضميري وليس يزال مختوما هناكا

أما نحن بعون الله وحده، فسنظل ثابتين صامدين.. وسوف نستمر حتى نتم عملنا.. ونحقق رجاءنا وأملنا..

سنظل في هذا الطريق أعزّة مستمسكين بديننا وكتابنا

حتى وإن نطق الزمان تعجبنا من عزمنا وإياثنا ومضائنا

وختاما؛ هذا ما تيسّر أن أكتبه عنك أخي السعيد؛ فإن قصرت، فحسبي من العذر ما عرفته من حلمك المأمول، وما ألقته من كرمك المعروف..

سامح أخال إذا الكف ” نَبَأَ صَحَّ مِنِي العزم والدّهر أبى

الله يعلم أني لست ذا بخل ولست ملتمسا في البخل لي علا
 لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يُعذَر في القدِّر الذي حمل
 سلام إلى أن نلتقي في جنة برياض الخلد زينتها الحور
 أَوَّا سمعت قول الحق للقوم ادخلوا دار السلام فسعياكم مشكور
 هذا النعيم به الأحبة تلتقي لا عيش إلا عيشة المبرور

أخي القاريء:

إلى هنا تمت هذه الرسالة، وقد سعدت بها وفرحت فرحة المطلق من الإسار، واهتزرت لها هزة
 الموسر بعد الإعسار..

كيف لا ! وقد قيل: (من ترجم لأحد فكأنما أحياه!)، زيادة على ذلك، فهي من البر والوفاء،
 للإخوان والأصدقاء، رفاق الدرب وسلوان الروح: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ
 لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأَيَّامِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلَالًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
 (الحشر: 10) ..

فالأجل تلك الصلة التي بيني وبين أخي السعيد، دونت تلك الشهادة، فاللهم إني أشهدك أني أحبّه
 فيك وأسأل الله أن يرزقنا قوة في الحق والإرادة، ويختتم لنا بالسعادة والشهادة، كما نسأل سبحانه، أن
 لا يحرمنا أجراهم، ولا يفتتنّ بعدهم، ويلحقنا بهم غير مبدلّين ولا مغيّرين، والحمد لله أولاً وآخرًا
 وظاهراً وباطناً..

اللهم لا تجعل ما ألّفته قرائنا مردودا إلينا بالطّرد والإبعاد، ولا ما سطّرته أنا ملئنا شهيداً
 علينا يوم يقوم الأشهاد وارزقنا شهادة ننال بها أعلى رتب الزلفى لديك، وبيض وجوهنا
 يوم تسود الوجوه وتبيض بين يديك، فأنت ذو الطول العظيم والفضل العميم..

هذا؛ وأستغفر الله من كل ما زلّ به القلم.. أو شطح به الفكر.. والله أعلم
 وصلّى الله على نبّينا محمّداً، وآلـه وصحبه وسلمـ.

بقلم الفقير إلى عفوا ربه: أبي عبيدة.

من على ثرى أرض العزّة والإباء، أرض الجهاد والاستشهاد؛ الجزائر.